

العَلَم

للكاتبة الانجليزية لوز هيلجبرز
بقلم الأديب جورج سَلِستى

المجتمع الصاحب .
وخرجت من
المزلة فتاة في مستهل
الصبا ومطلع الشباب
تتألق منها الأسارير
بالوضاء، وتفيض منها
القصبات بالحسن، وقد
زادها ثوبها القروى
البسيط جمالاً فطرياً

عجبا إلى القلوب، ومشت كفيشة الخطى إلى دجاجاتها
تنثر عليها الحب مقترنة الثنايا، والأفراخ تنصاح
حولها صيحات الفرح وتقفز حيا لها مريحة مسرورة .
فلما فرغت من شأنها مع دواجنها تحطرت بقدها
اللدن المشوق على بساط العشب المتوج الهامات
بأنداء الصباح، وراحت ترمق السماء بعينين حاليتين
تفيضان وداعة ولطفاً، وتتأمل فيما يكتنفها من
المرأى الساحرة بسداجة الولد الغريب

ووقع نظرها على سحابة زرقاء تتصاعد من وراء
الغابة في مطاوى الأفق، ثم على أخرى مرفوعة على
مناكب الهواء السجاج البارد، فوقفت مبهوتة
سادرة لحظة أو لحظتين وهزت كتفها في مرارة
واشمزاز وقالت: « الحرب ... مرة أخرى يالنكد
الطالع ! » ورفست الأرض برجلها حانقة غصبي

إن القدر ليأبى أن تكون السعادة إلا مشوبة
بالكدر، والاطمئنان إلا مرتقاً بالقلق والاضطراب؛
وسنة الدهر الخؤون ألا يُحرم الناس لفتاته المرة
بين الحين والحين كأنما يعز على القضاء الواعل أن
يفلت امرؤ من إيساره

والحرب !؟ أى جدى فى الحرب وأى نفع !؟

انصدع عمود الفجر، وتمشت طلائع الأنوار
في حواشي الليل تمشي الأمل الوضىء في حنايا القلب
البائس المتنازع، وأطلت مليكة النهار في محمها النارية
قارة الطرف تنثر بسمات ثغرها الشيب ذات اليمين
وذات اليسار، فهلت الدنيا واطلقت الكائنات؛
واسترسلت ذوائب الأضواء على السهول الفيح
فاهترت الأغراس وارتعشت السنابل، وانطلق
نسيم الصباح البليل فوق المروج والحقول يهمس في
آذان الزهر هينات الهوى، ويتمم في مسامع
النباتات أسرار الغرام، وسبحت في رحاب الأجواء
وفود الأطيوار تسكر السماء بزقزقاتها، فيترنخ لأغاريدها
قلب الأثير، وتميد لأناشيدها أعطاف الأفق،
وانحسرت مرأى الطبيعة الغاتنة في تلك السهول
المنبسطة الخضراء عن منزل وضع قائم حف يباحاته

مخضل البت وساوره ندى العشب، فبان في روعة
الصباح الضحيان منزلا من منازل الخلد جامعاً في دعة
تفتن اللب في إطار من الحضرة السندسية يأخذ
بمجامع القلب . منزل وادع اطمانت به أسسه في
تلك الربوع الغرة التي يُظلمها العَلَم الفرنسى المثلث
الألوان اطمئنان أهليه النائين عن ضجيج الحياة ولجب

عن همسة ناعمة مدلولها الصمت ، ثم شاعت على قسائه
بسمه كثيفة خرساء ، كان لها في نفسها هي أبلغ
الأثر . ولم يلبث روعها أن أفرخ وبها أن اطمأن ،
فتقدمت إليه وأسندت ذراعها إلى الباب حياله ،
وقالت له بصوت رقيق أودعته الكثير من العذوبة
والحياء :

— « يلوح لي أنك قادم من معركة إخال أن
رحاها ما تزال دائرة هناك . أليس كذلك ؟ »
وأشاحت برأسها نحو الغابة التي مافتى الدخان
يتصاعد من ورائها كثيفاً داكناً
وألقى الرجل عليها نظره فراها تحديق في الأفق
وقد انقبضت منها الملامح وتجهمت ، واصطكت
أسنانها من غيظ كظيم . فقال وقد فارحنه
ولمت عيناه بوميض الغضب :

— « هؤلاء الألمان الخنازير لاهم لهم إلا قتل
الأبرياء وإراقة الدماء ! ليست فرنسا هي التي يريدون
فها هم بحاجة إلى زرعها ولا إلى أرضها ، وإنما الفتك
بأهلها ما يبتغون . إن إزهاق أرواح الناس مبتغاهم ،
وسفك الدم غاية مناهم ؛ إنهم وحوش ضارية لا يلد
لهم إلا مرأى النجيع المهدور يتفرق على الثرى ،
وإلا الأشلاء البعثرة هنا وهناك على أديم الأرض .
لقد هجموا علينا فجأة شأنهم في كل غاراتهم الفادرة
وحصدونا برصاصهم حصداً »

ورجع خطوة إلى الوراء ، وأسند ظهره إلى
الباب وضحك ضحكة صفراء ، يحسبها السامع لجفافها
شهقة محتضر ثم قال :

— « أحسب أنني الرجل الوحيد الذي لا يزال
من كتيبتنا على قيد الحياة . لقد قتلوا أفرادها جميعاً
ولم ينج من الموت المحم إلا أنا ... لقد مات رفيق
(٤)

إنها النكبة الكبرى والطامة العظمى ، تنثر الدمار
تترأ فتقوض معالم المدنية والعمران ، وتطوح
بالشباب إلى مهاوى الردى ، وتبعث بهم إلى أشد اق
الموت لقما سائغة هنيئة !

أما المجد والسؤدد ، أما العز والفخر ، فليست
إلا كلمات جوفاء لا معنى لها إلا عند الجشعين الألى
يتخذون من مجاهم الضحايا وأشلانها سلماً لطامعهم
وما ربههم ، فيا للصبيا المهدور ، ويا للدم المهدور !

والشباب زينة الحياة وبهجتها ، وذهابهم ذهاب
الأماني وتلاشي الأحلام ، ونأيهم تصويح لمستقبل
الفتيات العتيد . فالحرب إذن نكبة عند النساء
فادحة تلمس منهن الوتر الحساس في الصميم ، وتسيء
إلين إساءة ليس إلى اغتفارها والصفح عنها من
سبيل !

كانت نظرات الفتاة معلقة في سحب الدخان
وهو يسمو نحو الأعلى ، وفكرها محصوراً في الحرب
وويلاتها والمساوىء التي تلحق من جرائها بينات
جنسها ، وتاهت في تفكيرها العميق الذي شغلها عن
نفسها حتى أنها لم تر رجلاً يزحف بين السنابل
الخضراء ، ولا سمعت وقع خطاه وهو يعدو على بضعة
أمتار منها ممزق الثياب متربها ، ولم تفق من غمرة
التفكير إلا على صوته الذي أرسله بحذر وهو يسرع
إلى باحة المنزل ويحتمى ببابه

هو شاب في مقتبل العمر عليه بزة الجندي
الفرنسي قد علت محياه الوسيم أمانر الوصب المرقع ،
وتجلت في نظرات عينيه دلائل الجزع ، فما إن وقع
عليه بصرها حتى صاحت مرتاعة :

— « يا إلهي ! لكم أربعتني ! »

فوضع سبابته على شفثيه الرقيقتين اللتين انفرجتا

فرفع إليها نظره الخافت وقال بصوت أجش :
 — « لقد نجوت به منهم . أجل ، لقد أنقذته
 ولكن بعد أن دفعت في سبيل إنقاذه حياتي ...
 وإنها لثمن بخس ... ! »
 وبسط القطعة المطوية برزاة وهدوء ، ثم
 استطرد :

— « إنها عَلمَ فرنسا الغالي . لقد فني أفراد
 الكتيبة جميعاً ولم يسلم منها إلا هذا اللواء المفدى ...
 لقد نال هؤلاء الألمان الملاحين كل شيء ما عداه ،
 فهو وحده لم يمس ... لقد أحرزوا النصر ووقفوا
 إلى نيل الظفر المنشود بعد أن أزهقوا أرواحنا
 وأهرقوا دماءنا ... إيه أيها الفتاة ... »
 وكف عن الكلام هنيهة ، ثم أمسك معصمها
 الذي لوحتته حرارة الشمس دون أن تسفمه ، وهزّه
 هزة استجمع لها كل ما فيه من قوى وتابع :
 — « عليك أن تحتفظي بهذا العلم احتفاظك
 بنفائس الأعلاق ، وأن تصونيه صيانتك لأقدس
 ما عندك . أسمعيني ؟ »

فأجابت بشيء من الجراءة والدالة :

— « ما لنا وللعلم الآن يا هذا ، دعنا منه
 ولندير أمر إنقاذك »

وتفرست فيه لتبين أثر كلماتها في نفسه ،
 فرأته وقد زوى ما بين حاجبيه وكلح وجهه جامد
 النظرات سادر الطرف لا يحير ، فلم يكن منها إلا
 أن أمسكت اليد التي أطبقت على معصمها بقوة ،
 ودلت عليه برقة ، ورمقته بنظرات فائرة تقيم قلب
 الخلى واستأنفت قولها :

— « إن العلم على كل حال لا يبعدى كونه
 قطعة من قماش ، وأما أنت فله برديك الشباب

كلهم وإنى على آثارهم لمتفتر . إن هي إلا ساعة
 أو بعض ساعة ألفظ بعدها ... »
 وتوقف عن الكلام ، فساد المكان صمت
 رهيب ، وخيم عليه سكون فاجع . فربت الفتاة ،
 وتقدمت إليه مرتمشة ، ومدت يدها النخيفة
 السمراء ، وقالت بلهفة الجازعة :

— « ما بك ؟ أمصاب أنت بجرح يحتاج إلى
 تضميد ؟ ألم بك مكروه ؟ دعني أحضر لك جرعة
 من الماء القراح ، أو أقدم إليك المساعدة التي تبتغي ؟
 أفصح بربك ... قل ... أيعوزك شيء ما ؟ أريد
 ماء أو ... ؟ »

فhez رأسه والألم بكبت منه الروح ، وتجمرت
 على ثغره الذابل بسمة هزء بانت من ورائها أسنانه
 اللؤلؤية البيضاء ، وأطلق من صدره المعسى آهة
 اضطرب لها جسده الواهن النهوك وقال :

— « إن زمني يا فتاتي قد تصرم وانقضى ،
 ولم يبق لي من الحياة إلا دقائق معدودات . لقد
 استقرت في صدري رصاصة جانية ، والثغرة التي
 فتحتها فيه ضمنية بالقضاء على أشد الرجال عزماً
 وأقوام بنية ، وقد ألفظ أنفاسي الأخيرة بين يديك
 يا فتاتي ، ولكن لا . لي ما أقوله لك قبل رحيلي
 الأبدى من هذه الدنيا الفانية ... وصيتي الأخيرة
 قبل أن تفارق روحي جسدي »

قال هذا ومدّ يده إلى صدره وانتزع من بين
 ثناياه قطعة من القماش الملون طويت بترتيب كلى ،
 وقدمها إليها وقال : « انظري ! »

فتطلعت الفتاة إلى ما قدمه إليها الجندي الجريح
 وصاحت بدهشة واستغراب لا حدّ لها :

— « ولكن ما هذا ... ؟ »

أن تخبئه في صدرك ... فتصبح فرنسا الحبيبة في
صدر امرأة ، وإنه والله لحسن آمن من برلين »
وصمت هنيهة أطلق فيها من صدره المجهود
زفرة لاهبة ثم قال بلهجة السيد الأمر :
— « أسرعى يا فتاة »

ونزلت الفتاة عند رغبته وأذنت لمراده
فراحت تفتح صدرها بأصابعها اللدنة الناعمة وراح
هو يتعملى بنظر البائس المحزون من روعة الفجوة
الضاحية بين النهدين السريين ، حتى إذا وضعت
العلم المطوى فيها ، وأخذت ترزّر صدرها وهنّ
منه المزم وخارت القوى ، فهوى جسمه ، وكاد
يقع على الأرض تحت قدميها الصغيرتين لو لم
تسعه بذراعيها العبالوين الفتولتين ، فالتكأ عليهما
قليلاً ثم ارتمش بينهما ارتعاشة الطائر الجريح وتعلمل
بينهما بحركة خفيفة مؤلمة حاول أن يستجمع فيها
قواه لينتصب واقفاً وججم لنفسه بصوت خفيض
متقطع سمعته الفتاة جلياً واضحاً :

— « يلوح لي أن الموت أدنى إلى مما كنت
أحسب ، خير لي إذن أن أذهب في سبيلي »
ثم التفت إلى الفتاة وحدّق في عيائها الوضىء
القسمات بعينييه السوداوين الكثيبتين وقال لها :

— اصنى لما أقوله لك ولا تحاولي أن تعترضى
على مشيئتي ... أجدى عليك ألا أبقى هنا ، فبقائى
شرّ كله ، ووبالّ عليك وعلى ذوبك أجمعين ...
سأسير على بركة الله وحسبى أنى أودعت العلم
في حرز حرز ... وحذاريك الألمان يا فتاة ...
فاذا شئت أن تحسنى إلى نفسك فأنكرى عليهم
رؤيتك لي ... لا بل عليك أن تنكرى الانكار كله

النضير ، وأمامك مستقبل وضىء ملؤه الآمال ،
وأنا ... أريدك أن تحيا ... سأحاول جهدى
لأنجيك وأعيد إليك قواك وعافيتك ، ولن أدخر
وسماً في سبيل برئك وشفائك وضمان سعادتك
وهنائك »

وتوقفت عن كلامها مرة أخرى لحظة واحدة
فقط حدثت خلالها فيه ومقلتها تشمان بوميض
غريب ثم قالت :

— « فى وسى أن أخبثك فى مكان لا ترفع
إليه عيون أعاديك ، ولن يناولوك عندى مهما
تألبت جموعهم وكثرت على ، فالتمويه على هؤلاء
الخنازير الأغبياء سهل ميسور »

وما كادت شفتاه تنفرجان عن آخر لفظته ،
حتى كان هو قد انتزع يده من قبضتها انتزاعاً
وصاح بها :

— « خبئى فرنسا بدلاً منى . إيه أيتها العذراء
ما أراك تفقهين ما أقول ؛ إن العلم هذا هو فرنسا
بعينها ، متجسمة فيه بكرامتها وإياها ومجدها التالد
والطارف ، وشعبها الأنوف النبيل ، ويجب ألا
يصل إليه أعداؤنا الألمان بوجه من الوجوه ،
أنفهمين ؟ ! »

كان يتكلم بشيء غير يسير من الحدة والغضب ؛
والحدة والغضب خلّتان ماثورتان عن الفرنسيين
جميعاً لا تكاد تستثنى منهم أحداً ؛ غير أنه لم يلبث
أن انفثأت حدته واستكان ، وانطلق يطوي
اللواء طياً سريماً ومقلته الدابلتان عالقتان بمقلتيها
الناعستين ثم قال بلهجة كلها ضراعة وتوسّل :

— « إن ردائك واسع فضفاض فعليك بالله

— « إنك تحملين فرنسا في صدرك أيتها الفتاة ... »

وضحك ضحكة هادئة مقتضبة واستطرد في عبارته :
« وأنا رجل على شفير الهاوية وأوشك أن أموت ...
والاحتضار على قيد باع منى وتتحدثين إلى مع
ذلك كله عن الهوى والحب ، هيه ... »

وراح صدره يهبط ويعلو بسرعة ، وفؤاده
يخفق حتى ليكاد يسمع وجيئه ؛ فلما أحس بشيء
من الراحة تابع قوله بشيء من المرارة كثير :

« لا شأن لي بالهوى ... إنها الحياة التي
ابتنى ... هي الحياة التي أحتاجها أيتها الغانية ! »
لقد رماها بهذه الكلمات المقتضبة القاسية ،
وإن هي إلا أحجار تنثال لا ألفاظ تقال ، ثم سار
الهويني ، وانطلق يدلف في سبيله دلفة العاني
الكليل

وأما هي فقد انتنت بسكون على الحاجز الخشبي
والياس يرمض منها الجوارح ويقض منها الحشا ،
تواكب نظراتها الحزينة وهو يشق طريقه بين سنابل
الحقل كنيء الخطى وثيدها . ولما ابتعد عنها ولم
تعد تسمع حركة ولا نامة ، ولم يبق لها إلا ارتقاص
الأزهار بين أكف النسبات ، وارتعاش النباتات
بين أنامل الهواء ، لكضت صدرها الحبيب الفاتن
لكضة أو لكضتين وصاحت من فؤاد متبول
وحشاشة كلبي :

— « فرنسا !! أنا أكره فرنسا وأمقتها ! »
ورأى الدمع في محجرتيها ولم يلبث أن انهمر
على خديها المتهبين صبيكاً سخيفاً

وسيتقنون بقولك من غير ريب ، قالوت لا يزال
باكراً ... أنفهمين ! »

وسكت وكل ما فيه يتم على اليأس الفادح والألم
المر ؛ ونظر حوله نظرات بطيئة فاحصة كأنه راح
يودع ذلك المحيط الزاهر المغمور بالجمال الفطري
الساحر ، ويشيع هاتيك الأرباض التي يهددها
سجع البلايل وتغريد العنادل كل فجر ، ويناغها
كل مساء حفيف الأوراق في الفصول المُلد
النديّة وهينمة النسيم الرخي في سوق^(١) السنابل
الثرية . ولما هم بالمسير استوقفته الفتاة بنظرة كلها
هوي وجوى ، وقالت له وقد ضرج الخفر خديها
النضرين بحمرة الشفق الحالى : « قبلنى — على
الأقل — قبل رحيلك . هبني لثمة واحدة من ثورك
الشبيب . وارشف مرة — لا غير — لماي قبل منك ! »
فجمد الجندي في مكانه بارد النظرات ، وقد
وقفت هي أمامه ملتبهة العاطفة بقدها اللباس ،
وقوامها الرشيق ، وشبابها الفض الرطيب ، وجسمها
المغرى الفاتن ، وألقى عليها نظرة ضمنية كل
معاني الزهد والاحتقار ، وقلب شفّته ، وهز
منكبها وتتم :

— « واهّا لكن معاشر النساء ! إنكن
جميعاً في العاطفة سواء ؛ ... طبعتن بطابع اثوى
واحد ، وُجِبلتن على شاكلة واحدة ! »

وصمت وهو يلمث ، كأنما جشم نفسه مشقة
لا قبل له باحثها إلا بجهد ، حتى إذا هدأت
أنفاسه واستراح التفت إليها ثانية وقال :